حضور المرأة النصرانية في معجم الغزل عند عبد الله بن الحداد الأندلسي.

الأستاذة: نسيمة قط
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر– بسكرة

Résumé :

ملـــــخص:

يتناول هذا المقال واحد من شعراء الأندلس في القرن الخامس الهجري إنه النجم اللامع والكوكب الساطع في سماء الشعر الأندلسي عبد الله بن الحداد، هذا الشاعر الذي حظي بفضل السبق في طرق موضوع جديد على مسرح الشعر العربي، وفن الغزل تحديدا، حيث عني بالتغزل بالمرأة النصرانية، وقد كان لعبق الحضارة الأندلسية الجميلة أثر كبير في إرساء دعائم هذا اللون الجديد من الغزل الذي ميز الشعر الأندلسي عن غيره، حيث انعكست ملامح هذه الحضارة على النتاج الغزلي لهذا الشاعر فأثرت تأثيرا مباشرا في لغته الشعرية مما جعله يوظف اللغة العقائدية في شعره فيكون دقيقا في إختيار ألفاظه من خلال ولوعه بالأجواء التي توحي بعقيدة هذه المرأة النصرانية، كما يعكس هذا الإتجاه في شعر "ابن الحداد" القيمة الإنسانية التي كانت تحظى بها المرأة النصرانية في المجتمع الأندلسي، وكذا التسامح الديني الكبير الذي ظفر به النصارى في كنف الدولة الإسلامية الأندلسية.

في ظل كل هذا الدفق من القيم والأبعاد التي عني بها هذا اللون من الغزل إلا أنه لم يظفر بالعناية الكافية من قبل الدارسين، سيما في رحاب هذا الشاعر الذي يعتبر الأجدر بالعناية والأولى بالإهتمام.

تقـــــديم:

هو الشاعر "محمد بن أحمد بن عثمان أبو عبد الله القيسي"[1] نسبة إلى "قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان"[2] ويلقب بمازن وقد حفل عالمه الأدبي باستخدامات كثيرة تدل على إلمامه بآثار العلوم والمعارف حيث كان مشاركا في علوم كثيرة، منها الفلسفة والرياضيات والفلك والفقه ...[3]، يصفه ابن بسام في ذخيرته فيقول:

"وكان أبو عبد الله هذا شمس ظهيرة وبحر خبر وسيرة، وديوان تعاليم مشهورة، وضح في طريق المعارف وضوح الصبح المتهلل (...) ترى العلم ينم على أشعاره ويتبين في منازعه وآثاره ..."[4]، ويقول العماد الأصفهاني في حقه: "هو أديب فاضل"[5]، وله "في العروض تصنيف مشهور مزج فيه بين الأنحاء الموسيقية والآراء الخليلية[6]، وديوان مرتب على حروف المعجم"[7]، توفي سنة ثمانين وأربع مائة هجرية 480 ه[8].

إن الباحث في المصادر والمراجع الأندلسية يجد أن جل المؤرخين ومعظم الدارسين قد إنعكفوا على إبراز تاريخ الحياة السياسية والإجتماعية والثقافية الأندلسية، مهملين بذلك تاريخ النفس وقيمها الروحية والإنسانية، ذلك الجانب الذي قد يؤدي خدمة كبيرة لمؤرخي حضارات المجتمعات ودارسيها.

ولذلك فمن الأهمية بمكان ولوج هذا الباب من خلال فن الغزل، غير أن الأهم من ذلك هو خوض غماره في ربوع الأندلس، هذا الفن الذي حظي باهتمام الشعراء فيها فأصبح شغلهم الشاغل، أين خلف الحب بصماته بارزة في تاريخ حياتهم، كيف لا وكل ما في الأندلس يغري بالحب ويدعو إلى الغزل، بين مجتمع يتذوق الجمال ويعشق الشعر ويعيش الحب على اختلاف أشكاله وشتى مناحيه يهيء له السبيل في ذلك طبيعة الأندلس الجميلة وترف المعيشة وتوفر كافة أشكال اللهو وأسباب المرح واختلاط الأجناس من أمشاج متباينة على اختلاف أعراقها وأديانها ولغاتها، فارتسمت نتيجة ذلك مناح للحب مختلفة ومفاهيم واتجاهات له متعددة ومن بينها الاتجاه الذي يعنى بالتغزل بالمرأة النصرانية، وقد قطع هذا اللون من الغزل أشواطا بعيدة حتى شغل مكانا واسعا ونصيبا وافرا في مضمار الشعر الأندلسي، ويأتي عبد الله بن الحداد في طليعة الشعراء الذين أطروا لهذه الظاهرة التي لا ريب أنها انعكست على نتاجه الغزلي فطبعته بطابع محلي فيه من الأبعاد الحضارية والفكرية والفنية ما يجعل الواقف عليه والمتأمل فيه يندفع دفعا للإحاطة به والغور في أعماقه واستجلاء أهم خصائصه وأبرز مميزاته، سيما وأن عبد الله بن الحداد يختلف فيه عن الكثير من شعراء عصره الذين أثرت في شعرهم مظاهر هذه البيئة الجديدة، فقد شكل عنده ملمحا يتميز بالجدية في الحب والتعفف في المشاعر والصدق في العاطفة والمتأمل في شعره "يشعر بنفحة عذرية تهيمن على أشعاره، لأن حبه لم يكن حبا عرضيا ينتهي أو يزول بزوال الشهوة، ولكنه كان قد أحب نويرة حبا صادقا قويا عاصفا، حتى كاد أن يصيبه مس من الجنون مما أورث شعره مسحة من

الحزن في قالب عذري جميل" [9]وهو ما توحي به تجربته العاطفية من خلال مسيرة قصيدته الغزلية التي تسرد تجربة حب صادقة فقد كان فعلا "جادا في حبه صادقا في التعبير عن عاطفته، وإن نصيب شعره من حرارة الوجد يتميز على كثير من سائر الغزل الأندلسي" [10]

فقد كلف "عبد الله بن الحداد" بصبية رومية نصرانية لم يحب غيرها، وهو أمر تؤكده أغلب المصادر التي ترجمت له يقدمه ابن بسام في ذخيرته فيقول "وكان أبو عبد الله قد مني في صباه بصبية نصرانية ذهبت بلبه كل مذهب، وركب إليها أصعب مركب فصرف نحوها وجه رضاه وحكمها في عقله وهواه، وكان يسميها نويرة كما فعله الشعراء الظرفاء قديما في الكناية عمن أحبوه وتغيير اسم من علقوه"[11]، ويقول ابن سعيد صاحب المغرب: "وكان يهوى رومية يكنى عنها بنويرة، وله فيها شعر كثير"[12]، وغزله بهذه المرأة النصرانية لم يقتصر على إسم نويرة فقط، وإنما شمل أسماء أخرى أيضا كان يرمز بها إلى محبوبته مثل: لبينى، سليمى، مهدد[13]، وهذه الظاهرة في شعره تشكل قضية إجتماعية جوهرية غاية في الخطر والأهمية" فإغفال الشاعر إسم حبيبته الحقيقي واستبداله بأسماء أخرى، ماهو إلا نتيجة مواجهة سلبية لهذا الحب من قبل المجتمع (...) لكن ابن الحداد لم يأبه لتلك المعارضة كما لم يلق الإستنكار أي صدى في نفسه لأن حبه كان الأكبر وصوت قلبه كان الأقوى"[14] هذا في الوقت الذي لا نكاد نعرف فيه عن المحبوبة شيئا من موقفها سوى الصد المطلق أو السلبية الكاملة.[15]

في ضوء ما تقدم نلحظ أن هذا الإتجاه (التغزل بالمرأة النصرانية) قد شكل طفرة متقدمة وقفزة نوعية بفن الغزل في الأندلس، مخلفا بذلك جوا حضاريا جديدا يعبر عن روح الحياة الحضارية الجديدة "فهذا النوع من الغزل بدأ يتميز بلونه المحلي الذي يزيده وضوحا انعكاس الطابع الحضاري في المعجم الشعري"[16]، وهو ما يتضح جليا عند "ابن الحداد"، فهذه التجربة الجديدة جعلت نتاجه الشعري يتلون بألوان محلية إنعكس بدوره على معجمه الغزلي الذي خيمت عليه الأجواء العقائدية التي تدل على دين محبوبته النصراني حيث مال الشاعر إلى التلاعب بالألفاظ المستمدة من الجو المسيحي، وقد كان توظيفها في شعره قد بلغ من الكثرة ما يجعل "ابن الحداد" حامل لواء هذا النوع من الغزل الجديد على مسرح الأدب العربي دون منازع، ومن هذه المصطلحات التي شاعت في غزله ذكر الأديرة والكنائس والصلبان وعيسى عليه السلام والتثليث والرهبان والنساك والصوامع

والبيعات والمصباح ويوم الفصح والمنساة والزنار والقساوسة وقرع النواقيس والأناجيل ...[17]

وذلك ما جعله ينتج عملا شعريا متفردا له ملامحه الخاصة التي تتسم بصبغة وطابع متميز "فلكل تجربة لها لغتها الخاصة"[18] ولكل مكان مفردات لغوية خاصة تدل عليه ولا تقال إلا في حضرته.[19]

ومما تقدم يمكن حصر معجم "ابن الحداد" في إطار عقيدة المحبوبة النصرانية ضمن دائرتين، تتعلق الأولى بالمحبوبة والأخرى تتصل بشاعرنا "ابن الحداد".

1- دائـــرة دلائل ومعالم نصرانية المحبوبة:

نقف من خلال هذه الدائرة على أهم الجوانب التي يكشف فيها "ابن الحداد" على نصرانية محبوبته نويرة، وهو ما يمكن تحديده في جملة من المعالم أهمها:

1-1- التثليـــــث:

إن التثليث عند النصارى يعني وجود الإله في ثلاثة أقانيم الأب ، الإبن، والروح القدس، ذلك أن "هناك من الفرق النصرانية التي تربط الوحدانية بالأقانيم الثلاثة"[20] وقد ورد ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى:" لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد"[21] ويظهر توظيف هذا المصطلح عند "ابن الحداد" في قوله:[22]

وفي شرعة التثليث فرد محاسن   تنزل شرع الحب من طرفه وحيا.

فالشاعر في هذا البيت يصرح بأن له محبوبة تنتمي لشريعة التثليث، ويصفها بأنها غاية في الحسن والجمال(فرد محاسن)، كما يبوئ محبوبته المنزلة الرفيعة والمرتبة العالية والمكانة العظيمة، فشريعة الحب أنزلت من طرفها على المحبين وحيا (تنزل شرع الحب من طرفه وحيا)، وهنا يوظف الشاعر واقعة نزول الوحي على الأنبياء توظيفا فنيا غاية في الحسن والجمال.

ويسوق الشاعر هذا المصطلح في موضع آخر فيقول:[23]

حديثك ما أحلى فزيدي وحـــدثي   عن الرشـــــإ الفرد الجمال المثلــث
ولا تسأمي ذكراه فالذكر مؤنسي   وإن بعث الأشواق من كــل مبعــث
وبالله فارقي خبل نفســـي بقولـــه   وعـــــقد وجـــــدي بالإعادة فانفثي
أحقا وقد صرحت ما بـــي أنـــه   تبـــــسم كالـــــــلاهي بنا المتعبث

توضح هذه الأبيات أن إمرأة ابن الحداد نصرانية العقيدة، وقد دلت عليها لفظة (المثلث) ثم يصورها بأنها متفردة في الجمال (الرشإ الفرد الجمال) ولعل ذلك مازاد في تأجيج مشاعر الحب والشوق في نفس الشاعر الذي أوحشه الحبيب فبات يتقلب على نار الشوق والوجد مما أثار أشجانه وهيج عواطفه تجاه المحبوبة الغائبة فلم يتمكن من كبت إحساسه وعواطفه فلجأ إلى إحدى صديقاتها يطلب منها أن تطيل حديثها العذب عنها في حين يصور الشاعر بأن هذه المرأة النصرانية غير مبالية بحبه، عابثة بمشاعره مما يؤكد أن حبه كان من طرف واحد(تبسم كاللاهي بنا المتعبث).

ويوظف الشاعر مصطلح التثليث في واحدة من درر إبداعه الفني فيقول:[24]

مـــــثلثة قد وحد الله حـــسنها   فـــثني فـــــي قلبي بـــها الوجد والحزن.

استهل الشاعر بيته بمصطلح "التثليث" (مثلثة) للدلالة على أن محبوبته نصرانية، وربط هذا التثليث بالجمال في قوله(قد وحد الله حسنها)، فهي إمرأة مثلثة في دينها متفردة في جمالها، ثم يصور "ابن الحداد" حالة وجدانية إقتبسها من دين محبوبته النصراني الذي اعتمد فيه على مبدأ التثليث، حيث يبدي قدرة خارقة على التلاعب بالألفاظ وعبقرية واسعة في ابتكار المعاني، مصطنعا لحبه أقانيم ثلاثة، (الحسن، الوجد، الحزن) محققا بذلك التثليث الوجداني العاطفي.

غير أن ما نلحظه –في جل هذه النماذج– هو أن شاعرنا يربط مصطلح التثليث بجمال وحسن محبوبته، مما يقيم دليلا على تفرد المرأة النصرانية بالجمال في نظر "ابن الحداد"، هذا الجمال الذي أخرج نظم شاعرنا الغزلي في لوحات فنية بديعة.

1-2 الشـــعائر الـــــــدينية:

تعد الشعائر الدينية من أهم المعالم التي تدل على نصرانية محبوبة "ابن الحداد" وإن كان ذلك يقودنا إلى ملمح آخر غاية في الأهمية، وهو مبدأ إحترام العقائد الذي عرفه النصارى في ظل الدولة الإسلامية التي لم تقف عائقا أمام ممارسة هذه الشعائر ، ولعل ذلك يرجع إلى الإنفتاح الذي عرفه المجتمع الأندلسي مع مختلف الطوائف، وكذا المكانة المتميزة التي خصها الأندلسي المسلم للمرأة مما "يشير إلى التسامح الديني الكبير الذي كان يعيشه النصارى في ظل الدولة الإسلامية الأندلسية".[25]

ويعد عنصر الشعائر الدينية أكثر ما يميز شعر "ابن حداد" عن غيره من شعراء عصره، فقد حفل شعره بذكر الشعائر والطقوس الدينية عند المسيحيين وعباداتهم، كما

كثر في شعره المصطلحات الدالة على الكنيسة " مما يمنحنا صورة واضحة عن طريق إحياء المسيحيين والمسيحيات لشعائرهم الدينية كما كانت معروفة عندهم"[26]، ليرتدي حبه بذلك وجها جديدا يبدو من خلال شعره الذي هو ترجمان قلبه وجوارحه، وذلك في ذكره للطقوس والشعائر الدينية عند المسيحيين[27]، وللتدليل على ذلك نسوق هذه القصيدة التائية التي يعتمد فيها السرد القصصي الذي جعل أبياته تموج حركة وحيوية فيقول[28]:

فإن بي للـــــروم رومـــــية	تكنس ما بين الكنـــيســـات
أهيم فيها، والهوى ضـــــلة	بين صوامع وبيــــعـــات[29]
أفصح وحدي يوم فصح لهم	بين الأريطى والدويحـــات
وقد أتوا منه إلــــــى موعد	واجتمعوا فيه لمــــــيقات
بموقف بين يـــــدي أسقــف	ممسك مـــــصباح ومنساة
وكل قس مـــــظهر للتـــــقى	بآي إنصات و إخـــــــبات
وعينه تســـرح في عيــنهـــم	كالذئب يبغي فرس نعجات
وأي مرء سالم مـــن هـــــوى	وقد رأى تلك الظـــــبيات؟
والشمس شمس الحسن من بينهم	تحت غمامات اللــــــثامات
وناظري مختلس لمــــــحــــهـــا	ولمحها يضرم لوعـــــاتي

في هذه الأبيات يرصد الشاعر كيفية أداء المسيحيين لشعرائهم الدينية عبر جملة من المعالم الدالة على ذلك من صوامع وبيع وكنيسة وأسقف ومنساة وقس ...

وهو ما منح الأبيات جوا دينيا شعائريا حرص على توفيره في معظم القصيدة مجسدا من خلاله تجربته الشعرية في بعدها العاطفي، حيث يذكر الشاعر كيف يشارك بأحاسيسه فرحة نويرة في عيدها (عيد الفصح) "أفصح وحدي يوم فصح لهم" كما تدل هذه العبارة على أن "ابن الحداد" كان يراقب تحركات نويرة في هذا اليوم بعيدا عن مرآها مختلسا النظر بين الأريطي والدويحات، وهو ما يؤكد أن نويرة متمسكة بعنفوانها مستمرة في صدها، (وناظري مختلس لمحها).

ويواصل الشاعر سرد مراسيم الإحتفال بهذا اليوم المجيد (عيد فصح النصارى) إلى أن يقف عند أهم حدث فيه، وهو موقف القس الذي أعجب بجمال تلك الفتيات النصرانيات ومن بينهن نويرة، فسرحت عينه فيهن، فنسي بذلك ما عليه من واجبات دينية، فكان كذئب يريد افتراس نعاج القطيع(كالذئب يبغي فرس نعجات).

وفي ظل هذا الدفق الشعري نلحظ كيف أن "ابن الحداد" قد عمد إلى إظهار العنصر السردي داخل الجنس الشعري، الذي حدد لنا الحيز المكاني من خلاله وهو "الكنيسة" إذ "يتشكل المكان في النص الشعري عن طريق السرد القصصي، أو قل البنية القصصية لهذا النص، فثمة علاقة قوية وحميمة بين المكان وعناصر السرد القصصي"[30]، والبيئة هي التي تفرض دائما نوع الأمكنة التي يتناولها الشاعر وتحدد دلالاتها.[31]

كما تؤكد لنا هذه الأبيات أن "نويرة راهبة تعمل في الكنيسة"[32] فهي تقيم في الكنائس وهو ما نلمحه في قوله:[33]

فإن بـــــي للــــــروم رومـــية   تـــــكنس ما بيـــــن الكـــــنيسات

وقوله أيضا:[34]

والشــــــمس شمس الحسن من بينهم   تحـــــت غــــــمامات اللــــــثامات

فهنا يصف الشاعر محبوبته وهي تضع اللثام الأبيض على وجهها بأنها شمس الحسن بين النصرانيات ذلك أن " الراهبات كن يضعن قماشا أبيض على وجوههن"[35].

ويمكن تعزيز هذه الفكرة بأبيات أخرى خارج نطاق هذه القصيدة تلمح إلى أن نويرة كانت راهبة، فها هو الشاعر يبدو متعجبا من محبوبته كيف تحجب وجهها عنه وهو أكثر إشراقا من نور الشمس مع حسن التوظيف في هذا البيت لتقنية التناص حيث أشار "ابن الحداد" إلى الآية القرآنية الكريمة في قوله تعالى: "سيماهم في وجوههم من أثر السجود"[36]

فاسمعه يقول:[37]

حجــبت ســناك عــــــن بصري   وفــوق الشـــــمس ســـــــــيماك

وفي موضع آخر يصف جمال محبوبته الذي حجبه الخمار، فتجمع فيه وجهها المضيء كالبدر وشعرها الأسود كالليل يقول: [38]

وطــــي الخــمار الــــجون حسن كأنما   تجـــــمع فيه البـــدر والليل والدجن

وصفوة القول في هذا المضمار أنه فضلا عما تشير إليه هذه الظاهرة (ذكر الطقوس والشعائر الدينية المسيحية) من معالم توحي بنصرانية نويرة إلا أنها تؤكد أيضا "صدق الشاعر في تغزله، وبالتالي في حبه لأنه لا يعقل أن نلمس منه ذلك الإهتمام الكبير بتلك الطقوس والشعائر وذلك الإلمام بمعانيها حتى بالدقيق منها والجوهري دون أن يكون وراء ذلك محرض قوي وهذا الدافع هو حبه الكبير لنويرة وإخلاصه لهذا الحب".[39]

2- دائـــرة دلائـــل ومـــــعالم إستقطاب ابن الحداد للدين النصراني:

تمثل هذه الدائرة نزوع "ابن الحداد" إلى دين محبوبته نويرة النصراني وانعطافه نحوه، وليس ذلك بمستغرب على شاعر ترك الحب بصماته بارزة في نفسه، وانعكس – من ثم– على مواقفه، حيث تجاوز هذا الحب ما تمليه عليه الأعراف والتقاليد، فلم يكترث "ابن الحداد" لشيء لما أصبح ينساق راضيا إلى الثناء على دين محبوبته ومدحه، فأصبح هذا النهج من الملامح البارزة في شعره، فها هو "ابن الحداد" يتحسس حرمانه فيناجي نويرة أن تريح قلبه من معاناة حرارة الوجد، لاجئا في ذلك إلى نبيها(السيد المسيح عيسى عليه السلام) أين يتلاعب الشاعر بالألفاظ فيجانس بين عساك وعيساك فيقول:[40]

عـــساك بحـــق عـــيساك مـــريحة قلبـــــي الـــــشاكي.

وفي موضع آخر يقص "ابن الحداد" قصة حبه للقس عساه ينقذه من ذل الهوى وعذاب الشوق وألم الوجد والهيام مادحا في ذلك الدين المسيحي الذي يعتبره دين تسامح لا دين قسوة لأن مبادئه تنهض على تعاليم المسيح عليه الصلاة والسلام فيقول:[41]

ولا بد من قصي على القس قصتي عـــساه مغيث المدنف المتغوث

فلم يأتهم عيسى بـــدين قـــساوة فيقسو على مضنى ويلهو بمكرث

ويظهر إعجاب الشاعر بدين محبوبته نويرة وهو يطرب لسماع تراتيل النصارى وهم في عيدهم (عيد الفصح) فيقول:[42]

وقـــد تـــلوا صـــحف أناجيلهم بحـــسن ألحان وأصـــوات

يزيـــد فـــي نفـــر يعافيرهم عـــني وفي ضـــغط صباباتي

كما تبدو فتنة الشاعر وولعه بما يلف محيط حبيبته من طقوس وشعائر قوله:[43]

وأولعـــــني بصـــــــلبان ورهـــــبان ونـــــــساك

وفضلا عن ثناء "ابن الحداد" لهذا الدين نجد له موقف آخر، نهج فيه نهجا جديدا فقلب المفاهيم المتعارف عليها، وخرج عن الخط المألوف فحينها نستعرض هذا الموقف يطالعنا الحب بمظهر من الإنعطاف الذي تتبدد أمامه عوامل دينية وإجتماعية كثيرة، فحبه لهذه المرأة النصرانية جعل نفسه تضل عن دينها الإسلام لتتبع دين النصارى "فقد كان الأندلسي يميل عن دينه ليتبع هواه، إما التزاما بأن القلوب دينها هواها، أو عملا بأن الحب

في الديانة ليس بمنكر إذ القلوب بيد الله عز وجل"[44]، ومن هنا يصدق في "ابن الحداد" القول بأن "التوحيد وإتباع الهوى متضادان" [45]وفي هذا السياق يقول:[46]

وفي شرعة التثليث فرد محاسن   تنزل شرع الحب من طرفه وحيا
وأذهل نفسي في هوى عيسوية   بها ضــلت النفس الحنيفية الهديا

ويمكن أن نشير في صدد ما تقدم إلى أن هذه الوجهة التي لجأ إليها الشاعر لم تكن بدافع الدين النصراني ذاته بقدر ما كانت تنبع من صميم حب "ابن الحداد" وولعه الشديدين بنويرة التي تعتنق هذا الدين لدرجة أوثقت فيها اشراكه مما جعله" دائم التردد على الإديرة والكنائس المنتشرة في أحياء النصارى عله يحظى برؤياها، ويمتع ناظريه بجمالها الأخاذ"[47] فاسمع إليه يقول في جو مشحون بمعاني التعجب والإستفهام:[48]

ولم آت الكـــنائس عــــن   هـــــوى فيهن لــولاك
وها أنا مــــنك فــي بلــوى   ولا فـــــــرج لبــــواك
ولا أسـطيع ســــــلوانـــا   فقد أوثقـــت أشــــراكي
فكم أبـــكي عـليك دمـــا   ولا ترثيــــن للبــاكــــي
فهــــل تدرين ما تقـــــضي   عـــلى عـــيني عيناك؟ !
وما يذكــــيه مــــــــن نار   بـــقلبي نـــورك الذاكي؟
نـــويرة إن قــــليت فان   نــى أهـــواك أهـــواك
وعيــــناك الـــــمتنبئتا   ك أنـــي بعـــض قتلاك.

أما من الناحية الجمالية فقد جسد "ابن الحداد" ميوله لدين محبوبته من خلال بعض الخصائص الفنية التي اقتنصها لتأكيد فكرة ميوله لهذا الدين (النصراني) الذي تعتنقه المحبوبة، مما أضفى على لغته تميزا وجدة وجمالا من خلال بناء قافيته على الألفاظ الدالة على الدين النصراني ذلك أن "القافية قد يستغلها الشاعر في توكيد الفكرة وإبرازها، وذلك بوضع الألفاظ والكلمات التي تحمل مفاتيح الفكرة وأبعاد الصورة في القافية"[49] ومن ذلك قوله:[50]

وعــــرجـا يا فتي عامر   بالفتيــــات العــــيسويات
فإن بي للـــــــروم رومية   تكـــنس ما بين الكنيسات
أهيم فـــيها والهوى ضلة   بين صـــواميع وبيــــعات

وقــــوله:[51]

حديثك ما أحلى فزيدي وحدثي عن الرشإ الفرد الجمال المثلث

وأقـــسم بالإنجيل إني لمائن وناهيك دمعي من محق محنث

وقـــوله أيـــضا:[52]

وأولعـــــني بـــــصلبان ورهـــــبان ونـــــــــساك

وجملة القول أن هذا الإتجاه الذي سلكه "ابن الحداد" (التغزل بالمرأة النصرانية) مكنه من التوقف عند موضوع جديد في شعر الغزل العربي وهو توظيف اللغة العقائدية في معجمه الغزلي، والنصرانية على وجه التحديد، الأمر الذي جعله يخطو خطوات متقدمة في هذا الغرض عن شعراء غيره مكنه من أن يشق له لغة خاصة به حقق من ورائها طرازا جديدا من الشعر، وهو ما جعل من هذه التجربة التي حتى وإن لم نقل عنها فريدة من نوعها، إلا أنه يحق لنا أن ننعتها بالتميز لما تهيأ لها من إبراز مقومات خاصة جعلت "ابن الحداد" واحدا من الشعراء القلائل الذين تميز شعرهم بالبراعة والتميز وساهموا إلى حد بعيد في رسم هذا الملمح الحضاري الجديد الذي خصت به بلاد الأندلس، ذلك أن "لكل حضارة قديمة كانت أو حديثة جانب وجداني يطبعها بطابعه وينطبع بطابعها"[53].

كما يعكس هذا الإتجاه في غزل "ابن الحداد" مشهدا من المشاهد التي تنم عن التحضر والإنفتاح على الأمم الأخرى، "فالمجتمع الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين لم يكن مجتمعا مغلقا، فقد تميز عن سائر المجتمعات الإسلامية القاطنة في أصقاع إسلامية متباينة بأن ظهرت فيه صور من الإنفتاح والتحرر"[54].

الهوامـــــش

[1] محمد بن شاكر الكتبي: فوات الوفيات والذيل عليها، المجلد الثالث، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1974، ص 283.

[2] ابن حزم علي بن أحمد: جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، مصر، 1962، ص 10.

[3] ينظر: إميل بديع يعقوب: موسوعة الأدب والأدباء العرب في روائعهم (العصر الأندلسي الأول)، الجزء التاسع، دار نوبليس، بيروت، ط1، 2006، ص 59.

[4] أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الثاني، تحقيق آذرنوش نقحه وزاد عليه محمد المرزوقي، محمد العروسي المطوي، الجيلاني بن الحاج يحي، الدار التونسية للنشر، تونس، ط1، 1971، ص 271.

[5] العماد الأصفهاني الكاتب: خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء المغرب والأندلس)، ج2، ص 271.

[6] الآراء الخليلية: تأليفه في العروض هو مستنبط في علم الأعاريض المهملة عند العرب.

[7] أحمد بن محمد المقري التلمساني:نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، المجلد السابع، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1988، ص 49.

[8] محمد بن شاكر الكتبي: فوات الوفيات والذيل عليها، المجلد الثالث، ص 283.

[9] محمد صبحي أبو حسين: صورة المرأة في الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط2، 2005، ص 95.

[10] إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط5، 1978، ص 161.

[11] ابن بسام الشنتريني: الذخيرة، القسم الأول، الجزء الثاني، ص 693.

[12] ابن سعيد علي بن موسى: المغرب في حلى المغرب، الجزء الثاني، حققه وعلق عليه شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط2 (دت)، ص144.

[13] أنظر الديوان، الصفحات 141، 142، 191، ...

[14] جودت مدلج: الحب في الأندلس، ظاهرة إجتماعية بجذور مشرقية، دار لسان العرب، بيروت، لبنان، ط1، 1985، ص 246، 247.

[15] ينظر: إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، ص 205.

[16] عبد القادر هني: مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي قبل سقوط قرطبة، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، الجزائر، (دت)، ص 56.

[17] أنظر الديوان: الصفحات 157، 158، 159، 160، 168، 169، 170، 171، 241، 256، 306، ...

[18] السعيد الورقي: لغة الشعر العربي الحديث، مقوماتها الفنية وطاقتها الإبداعية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2002، ص 64.

[19] ينظر: محمد عايد ساير الطربولي: المكان في الشعر الأندلسي، من عصر الطوائف حتى نهاية الحكم العربي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2005، ص 22.

[20] صابر عبده أبازيد: موقف الغزالي وابن تيمية من المسيحية، دراسة تحليلية نقدية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2007، ص 37.

[21] المائدة/73.

[22] يوسف علي طويل: ديوان ابن الحداد الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1990، ص 306.

[23] المصدر نفسه: ص 168، 169.

[24] المصدر نفسه: ص 256.

[25] محمد صبحي أبو حسين: صورة المرأة في الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، ص 98.

[26] جودت الركابي: في الأدب الأندلسي، دار المعارف، مصر، ط4، 1975، ص 52.

[27] ينظر: جودت مدلج: الحب في الأندلس، ظاهرة اجتماعية بجذور مشرقية، ص 247.

[28] يوسف علي طويل: الديوان، الصفحات 157، 158، 159، 160.

[29] * الصواميع أصلها صوامع وهي جمع صومعة، والصومعة بيت لعباد النصارى.

* البيعات جمع بيعة وهي الكنيسة ومتعبد النصارى.

[30] محمد عويد ساير الطربولي: المكان في الشعر الأندلسي، من عصر الطوائف حتى نهاية الحكم العربي، ص 24.

[31] ينظر: المرجع نفسه، ص 160.

[32] محمد صبحي أبو حسين: صورة المرأة في الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، ص 97.

[33] يوسف علي طويل: الديوان، ص 157.

[34] المصدر نفسه، ص 160.

[35] محمد صبحي أبو الحسين: صورة المرأة في الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، ص 97.

[36] الفتح/29.

[37] يوسف علي طويل: الديوان، ص 242.

[38] المصدر نفسه، ص 256.

[39] جودت مدلج: الحب في الأندلس، ص 249.

[40] يوسف علي طويل: الديوان، ص 241.

[41] المصدر نفسه، ص 171.

[42] المصدر نفسه، ص 159.

[43] المصدر نفسه، ص 241.

[44] جودت مدلج: الحب في الأندلس، ظاهرة اجتماعية بجذور مشرقية، ص 245.

[45] طاهر لبيب: سوسيولوجيا الغزل العذري العربي، ترجمة محمد حافظ ذياب، سينا للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1994، ص 109.

[46] يوسف علي طويل: الديوان، ص 306.

[47] محمد صبحي أبو حسين: صورة المرأة في الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، ص 96.

[48] يوسف علي طويل: الديوان ص 241، 242.

[49] محمد صالح الضالع: الأسلوبية الصوتية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2002 ، ص 50.

[50] يوسف علي طويل: الديوان، ص 157، 158.

[51] المصدر نفسه، ص 169، 170.

[52] المصدر نفسه، ص 241.

[53] عادل كامل الآلوسي: الحب عند العرب، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ص 186.

[54] محمد صبحي أبو حسين: صورة المرأة في الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، ص48، 49.